من نجوم الإسلام

(١١)

الزبير بن العوام رضي الله عنه

حواريّ الرسول القائد

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى

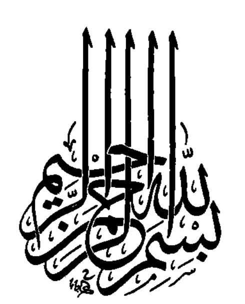
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ رضي الله عنه

حَوَارِيُّ الرَّسُولِ القَائِدُ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حَدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

كان درس اليوم عن الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، أولئك الذين أسلموا في فجر الإسلام، فرضي الله عنهم، ورضوا عنه.

تحدَّث أستاذ مادة الدين عن كل واحد من أولئك العظماء حديثاً مختصراً، وقد شدَّني إليه حديثه عن البطل المقدام: الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه.

كان فيما قاله الأستاذ عن الزبير، عدة أحداث وأحاديث، من مثل قوله عليه الصلاة والسلام:

«طلحة والزبير جاراي في الجنة».

وسرح بي الفكر عن هذين الرجلين العظيمين اللذين سيكونان جاري الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، إذ لو لم يكونا من العظماء المتميزين، لما رضيهما الله جارين لرسوله الأمين ﷺ.

وكان مما قال الأستاذ:

كان النبيُّ ﷺ على جبل حراء، فتحرك الجبل، فقال الرسول الكريم ﷺ:

«اسكُنْ حِرَاءُ ــ يعني اسكُنْ يا جبل حراء ــ فما عليك إلاَّ نبيٌّ أو صدِّيق، أو شهيد».

وقال الأستاذ معلِّقاً على هذا الحديث الطريف:

ــ وكان على جبل حراء، مع النبي الكريم ﷺ، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص. رضي الله عنهم جميعاً، فقد كانوا جميعاً شهداء إلاَّ سعداً. استشهد أبو بكر الصدِّيق بسمّ اليهود، كما استشهد من قبله النبيّ الكريم متأثراً بسمّ اليهود، واستشهد أمير المؤمنين عمر الفاروق على يد أبي لؤلؤة الفارسي المجوسيّ، لعنه الله، واستشهد عثمان بأيدي الملعونين من أتباع اليهوديّ عبد الله بن سبأ، واستشهد عليٌّ كرَّم الله وجهه بيد كلب ملعون من كلاب النار: عبد الرحمن بن ملجِم الخارجي الشقي، واستشهد الزبير على يد ابن جُرموز الذي بشّره النبيُّ الكريم بالنار، وقاتل طلحة في النار.

وكان مما قاله الأستاذ عن الزبير رضي الله عنه، أنّ أُسُود الإسلام كُثُرٌ، ولكنَّ أصحاب النجدات من المسلمين ثلاثة، هم: حمزة بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام رضي الله عنهم، فكان هؤلاء من الفرسان الشجعان الذين لا يشقُّ لهم غبار. حمزة عمّ النبي، وعليٌّ ابن عمه، والزبير ابن عمته.. بل إنَّ أمير المؤمنين عليًّا عدَّه أشجع الناس بلا منازع.

وقال الأستاذ:

ــ أصاب سيِّدْنا عثمانَ بنَ عَفَّانَ ــ وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ــ أصابه رُعَافٌ سَنَةَ الرُّعَاف، حتى تخلَّف عن الحجِّ

وأوصى، فدخل عليه رجل وقال له: استخلفْ. أي أوصِ بالخلافة لرجل من المسلمين، ودخل آخر وقال له: استخلفْ. ودخل ثالث وقال له: استخلفْ، فقال عثمان ذو النورين رضي الله عنه: تريدون الزبير؟

قالوا: نعم.

فقال ذو النورين: إنّ الزبير أَخْيَرُ المسلمين، وأحبُّهم إلى رسول الله ﷺ.

وقال الأستاذ:

ــ وقال أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنه:

لو عهدتُ ــ أي بالخلافة ــ أو تركتُ تركةً، كان أحبَّهم إليَّ الزبيرُ. إنه ركن من أركان الدين.

فسألتُ الأستاذ عن المناصب التي شَغَلَها الزبير رضي الله عنه فقال:

مَا وَلِيَ الزبيرُ إمارةً قطُّ، ولا جباية، ولا خراجاً، ولا شيئاً، إلَّا أن يكون في غزو مع النبيّ ﷺ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان. رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

وقال أستاذ مادة الديانة الإسلامية:

ــ وكان الزبير من أغنى أغنياء المسلمين، ومن أسخى أسخيائهم، وأكرم كُرَمائهم، وقد عُرف بهذا واشتهر، ووثق به المسلمون ثقة مطلقة، فكانوا يوصون له بأهليهم وأموالهم، لأنه عفيف كريم أمين، وقد أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة، منهم: عثمان،

وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، فكان ينفق على الورثة من ماله الخاص، ويحفظ لهم أموالهم.

فهتف الطلاب بصوت رفيعٍ حادٍّ واحد:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

فنشَّطَ هتافُنا أستاذَنا، فتابع يقول:

ـ تصوّروا.. كان للزبير ألف عبد مملوك يؤدون إليه الخراج، فلا يُدْخِلُ بيتَه من خراجهم شيئاً.

فسأل عادل:

ـ إذن.. أين كان يضع تلك الأموال؟

أجاب الأستاذ:

ـ كان ينفقها في وجوه الخير، على الفقراء والمساكين، وعلى الأرامل والأيتام، وعلى المنقطعين لطلب العلم، وعلى المجاهدين في سبيل الله تعالى.. كان يتصدَّق بها كلّها.. واسمعوا هذه الحادثة أيضاً:

باع الزبير داراً له بستّ مئة ألف، فقالوا له:

ـ يا أبا عبد الله غُبنت.

فسألت الأستاذ عن معنى (غُبنتَ) فقال:

ـ يعني غلبك المشتري بالسعر، ونَقَصَك مالَكَ.

ـ فماذا قال لهم؟

قال لهم: كلا.. هي في سبيل الله.

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله..

وقال الأستاذ:

ـ سأروي لكم خبراً أخيراً من أخبار الزبير، لأنتقل إلى صحابيّ آخر..

خرج الزبير غازياً في سبيل الله نحو مصر، فكتب إليه أمير مصر:

«إنَّ الأرض قد وقع بها الطاعون، فلا تدخلها».

فقال الزبير الوجل الواثق بربّه، المؤمن بالغيب وبقضاء الله وقدره:

ـ إنما خرجتُ للطعن والطاعون.

فسأل عادل:

ـ ودخلها؟

ـ أجل.. دخل مصر، وأُصيب بطعنة في جبهته، ولكنَّ الله أبرأه منها.

هذا ما تحدَّث به أستاذ الديانة عن البطل العظيم الزبير بن العوام، رضي الله عنه، وعندما عدت إلى البيت، كان خيالي يجمح في تصوُّر هذه الشخصية الفذَّة.

وعندما أويت إلى سريري بُعَيْدَ صلاة العصر، رأيت فيما يرى النائم، رجلاً طويلاً ممتطياً فرساً عربياً أصيلاً، وقد خطَّتْ رجلاه الأرض، فلما اقترب مني، رأيته خفيف اللحية والعارضين، أسمر اللون، غزير الشعر، قد وخط الشيب شعر رأسه ولحيته، وكان يسير إلى جانبه رجلٌ كهلٌ بلا لحية، ولا شعر في وجهه، تدل قسمات

وجهه على الجدّ والصرامة، وسمعته يخاطب الراكب بـ (يا أبـي) فاقتربت منهما، وسلَّمتُ عليهما، فكان ردُّهما حسناً، وإقبالهما عليّ مشجّعاً. . وزاد في تشجيعي إقبال أختي صادقة نحوي، وأخذها بيدي.

سألني الشيخ الراكب الذي وقف يتأملني مَلِيّاً:

ــ من أنت يا بنيّ؟

فأجبته في فرح:

ــ أنا صادق. . اسمي صادق أمين، وهذه أختي صادقة، فمن أنت يا عمّي؟

نزل الشيخ عن فرسه وقال الذي كان يمشي:

ــ ألم تسمعا بالزبير بن العوام؟

ــ بلى سمعنا كثيراً عنه.

هذا هو أبـي الزبيرُ بن العوّام، وأنا ابنه عبد الله، وبـي يكنىٰ، فيدعونه أبا عبد الله.

فقالت صادقة:

ــ نحن نعرف بعض أخباركما، فعبد الله بن الزبير، كأبيه في الشجاعة والإقدام، وليس مثل أبيه في أشياء أخرى.

فسأل عبد الله:

ــ مثل ماذا مثلاً؟

فلم تجب صادقة، وظهر الارتباك عليها، فقال لها عبد الله بن الزبير:

ـ لعلكم تصدّقون أقوال الشعراء في هجائي، واتهامي بالبخل؟ أبداً يا أولادي، أنا لست بخيلاً، ولا ينبغي لمسلم أن يكون بخيلاً، ولكنني كنت حريصاً على أموال المسلمين، ولا أريد بعثرتها على الشعراء المدّاحين النوّاحين، ولا على غيرهم من الناس الذين يطالبونني بتألُّف قلوبهم بالمال، لكسبهم إلى صفّي.. ومعاذ الله أن أفعل، ولو انفضُّوا من حولي، والتحقوا بخصمي.. معاذ الله.. معاذ الله.

ثم التفت عبد الله إلى أبيه وقال:

ـ معذرة يا والدي، فقد أثارتني هذه البنيّة، عندما صدَّقت قول الشاعر جرير بن الخطفي وغيره من الشعراء الذين اتهموني بالبخل، لأنني كنتُ أذبُّهم عن أموال المسلمين.. عن الأموال العامة، إذ ليس من حقي، ولا من حق أي حاكم أن يتصرف بالمال العام، وكأنه ماله، فيبذِّره على قصائد فارغة، وعلى شعراء منافقين.. وأنا أحفظ ـ مما أحفظ ـ من شعر جرير الذي تركني والتحق بعدوّي عبد الملك.. أحفظ هجاءه لي، واتهامه إياي بالبخل والإلحاد في قوله:

قَدْنِ مِنْ نصرِ الخُبَيْبينِ قَدِ

يعني.. يكفيني من نصرة عبد الله ومصعب ابني الزبير ما قدَّمته لهما، وطبعاً.. هو لم يقدِّم سوى كلام فارغ، ثم يقول في الشطر الثاني من بيته هذا:

ليس الإمام بالشحيح الملحدِ

إذن . . لا بـأس أن تحفظـوا هـذا البيـت، فهـو شهـادة لـي عنـد ربـي:

قَـدْنِ مِـنْ نصـرِ الخُبَيْبيـنِ قَـدِ ليـس الإمـام بـالشحيـح الملحـدِ

معذرة يا أبـي، وسوف ألتزمُ الصمتَ إلاَّ لضرورة قاهرة، فأنا ابنك وعبدك وخادمك أيها الفارس الجواد المجلِّي.

فـقـلـتُ:

ـ شكراً لك يا سيِّدي يا عبد الله على توضيحك التاريخي والشرعي هذا، فنحن نعاني اليوم من كثير من الصحفيين الذين يقومون بأدوار أردأ من أدوار الشعراء المدّاحين الهجّائين في أيامنا وأيامكم معاً. . نعاني منهم الأمرَّين، والأموال تُغدَق عليهم، حتى صار المنافقون منهم، من أصحاب القصور والسيارات الفارهة، والأرصدة الضخمة في المصارف، وكلُّها من أموال الشعوب المنهوبة المسلوبة المقهورة.

وقالت صادقة:

ـ هل تعرِّفنا بشخصك الكريم يا سيِّدي يا حواريَّ الرسول القائد ﷺ؟

وقلت أنا متابعاً أختي صادقة:

ـ نريد نبذة عن حياتك يا جدّي الشهيد.

فقال الزبير وهو يشير بيده نحو مرج أخضر:

ـ ما رأيكم في الجلوس هناك، على ذلك البساط الأخضر الجميل؟

ـ موافقون. .

وأسرعنا الخطو نحو المرج، وبعد أن استقرَّ بنا المُقام، واطمأنَّ على فرسه الذي انهمك في ازدراد العشب اليانع وقضمه، قال الزبير:

ـ اسمي الزبير بن العوام بن خويلد، من قريش، وكنيتي: أبو عبد الله، وولدي عبد الله هذا هو أول مولود يولد بعد الهجرة إلى المدينة، فهو أول مولود يولد في الإسلام، أو في دولة الإسلام في المدينة المنورة.

ـ وأنتَ يا سيِّدي؟ أين وُلدت؟

ـ ولدت في مكة المكرمة قبل الهجرة بثمانية وعشرين عاماً. . مات أبـي: العوامُ وأنا صغير، فكفلني عمّي نوفل، أمّا أمِّي، فهي صفية بنت عبد المطلب، عمَّة رسول الله ﷺ.

سألت صادقة:

ـ لا بدَّ أنَّ أمَّك أسلمت في وقت مبكِّر يا جدِّي؟

أجاب الزبير رضي الله عنه:

ـ أمّي صفية آمنت بالله ورسوله ﷺ، وهاجرت مع من هاجر إلى المدينة المنوَّرة، وابتُليت بقتل أخيها حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد، فصبرتْ واحتسبت ذلك في سبيل الله تعالى.

صادقة: وهي التي قتلت اليهودي الذي كان يطوف بحصن شاعر الرسول القائد، حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه، وخافت أن يدلَّ عليهنَّ، فأخذت خشبة كبيرة وقتلتْه بها.

الزبير: وفي غزوة أحد أيضاً، عندما رأت المسلمين ينهزمون من المعركة، ويتركون رسول الله ﷺ، قامت، وفي يدها رمح، وصارت تضرب في وجوه المنهزمين وتقول:

«انهزمتم عن رسول الله ﷺ».

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: هل يلتقي نسبك بنسب الرسول القائد يا سيِّدي؟

الزبير: نعم.. يجتمع نسبي ونسب رسول الله ﷺ في قصي بن كلاب. وكما قلت لكم: أنا قرشي أسدي، نسبةً إلى أسد بن عبد العزّىٰ القرشي.

صادقة: معنى ما سمعناه حتى الآن، أنَّ الرسول القائد ابن خالك، وأنت ابن عمته.

الزبير: وأنا عديل النبيّ ﷺ، فأنا زوج أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، والرسول الكريم زوج أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، وعن أمهات المؤمنين جميعاً..

صادقة: إذن زوجتك أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، فهل تشرح لنا سبب هذه التسمية: (ذات النطاقين) يا جدِّي العزيز؟

الزبير: عندما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر، ومكثا في غار ثور، كانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام، وجاءتهما يوم رحيلهما من غار ثور، ونسيت أن تأتيهما بحبل أو شبه حبل، لتشدّ به على فم المزادة ونحوها، ليحفظ ما بقي منها، وليُعلَّق بسرج الناقة، فحلَّت أسماء نطاقها، فشقَّته نصفين، وربطت قربة رسول الله ﷺ

بأحدهما وجعلت الطعام في الشقّ الآخر، فسُمّيْت بذات النطاقين، تخليداً لتلك الذكرى الرائعة.

صادقة: السؤال الثاني يا جدّي العزيز حول ولادة ابنك عبد الله، فقد قلتم إنه أول مولود يولد في الإسلام أو في المدينة المنوّرة، بعد الهجرة.

الزبير: خرجت أسماء بنت أبـي بكر حين هاجرت وهي حبلى بعبد الله بن الزبير هذا، فقَدِمَتْ (قباء) فولدت عبد الله فيها، ثم خرجت حتى أتت به رسول الله ﷺ ليحنّكه، فأخذه رسول الله ﷺ منها، فوضعه في حجره (أي حضنه) فأخذ النبـيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الزبير: تمرة فمضغها ثم أدخلها في فيه (أي فمه)، فكان أول ما دخل بطنَ ولدي عبد الله، ريقُ رسول الله ﷺ، وهذا هو التحنيك.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الزبير: ثم مسحه بيده الطاهرة، ودعا له، وسمّاه عبد الله.

ونظر إلينا الزبير مبتسماً وقال:

الزبير: هل أتابع حديثي عن ولدي عبد الله؟

صادقة: نعم يا سيِّدي أرجوك، فنحن نعرف أنَّ عبد الله بن الزبير كان من أعبد الناس، صوّاماً قوّاماً. تفضّلْ يا جدِّي العزيز.

الزبير: وعندما بلغ عبد الله الثامنة من العمر، أمرته أن يبايع رسول اللَّهِ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الزبير: فلمّا جاء عبد الله مبايعاً، تبسَّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً للمبايعة، ثم بايعه.

الشقيقان: ما شاء الله.. هنيئاً له.. هنيئاً لكم بسيّدنا الرسول القائد.

الزبير: وكنّاه رسول الله ﷺ بكنية جدّه أبـي أمه.

صادقة: تعني أبا بكر يا جدّي؟

الزبير: نعم. كنّاه أبا بكر، ودعا له، وبارك عليه.

صادقة: نحن نعلم يا جدّي أنك أحد العشرة المبشرين بالجنة.

الزبير: إن شاء الله.

صادقة: وأنك ممن توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ.

الزبير: الحمد لله.

صادقة: وأنك أحد الثمانية الذين أسلموا على يد أبـي بكر الصديق رضي الله عنه.

الزبير: وأرضاه. بل كنتُ رابع من أسلم بعد خديجة وعليّ وأبـي بكر رضي الله عنهم.

صادقة: وأنك أحد الستة الذين اختصَّهم سيِّدنا عمر رضي الله عنه بالشورى، بعد أن طعنه المجوسيُّ أبو لؤلؤة.

الزبير: إذا كنتم تعرفون كلَّ هذا عنِّي، فماذا تريدون بعدُ؟

صادق: كمْ كان عمرك يوم أسلمتَ يا سيِّدي؟

الزبير: أسلمتُ وأنا ابن ثماني سنين.

صادق: يعني كنتَ طفلاً عندما أسلمتَ يا سيِّدي؟!

الزبير (في غضب): تعدّون ابن الثمانية طفلاً؟ بل كنتُ رجلاً ابن ثماني سنين.

صادقة: وعندنا الآن أطفال في فلسطين المحتلَّة، يعيدون سيرتكم الأولى يا سيِّدي البطل.. إنهم في هذه الأيام العصيبة، والمؤامرات على فلسطين من كل الجهات ـ يتصدَّون لليهود بأيديهم الصغيرة، وحجارتهم التي تتناسب مع أيديهم، يرجمون بها اليهود بكل شجاعة وإقدام، لا يهابون رصاصة، بل يستقبلون بصدورهم الكبيرة المفتوحة، وقلوبهم العامرة بالإيمان، رصاصَهم الغادر، وقنابلَهم الجبانة، ودباباتهم وطائراتهم ومدافعهم.

الزبير: أفرحتموني أسعدكم الله وأفرحكم، وأرجو أن لا يكون أطفالكم أجرأ من كباركم في خوض المنايا.

صادقة: الحقّ.. إنهم أجرأ من الكبار يا جدِّي العزيز، وهم الذين جرّؤوا الكبار على اليهود، وقد استشهد منهم عدد كبير، والعرب والمسلمون يسمعون أخبارهم في الإذاعات، ويشاهدون بطولاتهم وصمودهم في التلفزيونات، ويقرؤون عن معاناتهم في الصحف والمجلات، ثم لا يحرِّكون ساكناً.

الزبير: وتتركونهم وحدهم في المعمعة؟

أفٍّ لأمة رجالها أطفالها، ولا بارك الله في أمة يندفع صغارها إلى مذابحهم، فيما رجالها يتفرجون ويصفِّقون.

صادق: يا ليتهم يتفرجون عليهم ويصفِّقون.. إنَّ المترفين فينا يتقلّبون على سرر النعيم، يلهثون وراء شهوات هابطة، فيما هم

يشاهدون مذابح أطفالنا على أيدي نسل الأفاعي من بني صهيون.

الزبير: يا حسرة على العباد! .. إذن.. فليفتِّش أولئك عن إيمانهم، عن إسلامهم، عن سلامة الدماء التي تجري في عروقهم، فقد يكونون هجناء أو مهجَّنين، لأنَّ العربـي المسلم لا يكون إلاَّ أبياً، لا يُسْلم أخاه ولا جاره ولا أيَّ إنسان للجزّارين.. العربـي المسلم يبذل دمه في سبيل ألاَّ يراق دم مظلوم.

صادقة: لذلك، نرجو أن تزوّدنا يا سيِّدي بحديث الجهاد والمجاهدين.

صادق: فنحن نعيش منذ قرن من الزمان يا سيِّدي، تحت وطأة مؤامرات دنيئة خسيسة، ويسرّنا ويسعدنا أن نستضيفك اليوم يا سيِّدي، لنحاورك ونستفيد من تجاربك ونصائحك. نريد أن نأخذ من ماضينا الجيد، لحاضرنا التعيس، ولمستقبلنا المجهول في وسط المؤامرات الخبيثة التي تحاك ضدّ عروبتنا وإسلامنا.. فهل لك يا سيِّدي أن تحكي لنا عن كلّ ما يفيدنا في حاضرنا، عن كلّ ما مرَّ بك في حياتك الجهادية، أو عن بعضه، لنستفيد منه؟

الزبير: نحن ـ يا أولادي ـ وهبنا أنفسنا لله عزَّ وجلَّ، وكلّ أمر تكون فيه مرضاة الله سبحانه، فنحن على استعداد لتقديمه، فماذا تريدون مرة أخرى؟

صادقة: هذا هو المأمول فيكم يا جدّي العزيز..

صادق: كنتم تحدَّثوننا عن إسلامكم، فخرجنا عن الموضوع.

الزبير: لا.. لم نخرج عن موضوع الإسلام، وهو موضوع المسلمين في كلِّ زمان ومكان..

صادقة: تفضلْ يا جدي العزيز.

الزبير: غضب قومي لإسلامي، وكان عمّي نوفل بن خويلد يعلّقني بحصير، ويدخّن عليه النار، ويقول لي آمراً:

ـ ارجع إلى دين آبائك، ودعْ دين محمد.

صادقة: وهل كنت تلتزم الصمت يا سيِّدي؟

الزبير: بل كنتُ أجيبه: لا والله، لا أرجع أبداً عن دين محمد ﷺ، إلى دين الكفر والشرك بالله.

صادق: الله أكبر!. ما شاء الله!..

صادقة: هل أسلم معك أحد من أهلك يا جدّي العزيز؟

الزبير: أسلمت أمي صفية كما قلت لكم، كما أسلم شقيقاي: السائب بن العوام، وأم حبيب بنت العوام، وأسلم أخواي لأبي، وهما عبد الرحمن بن العوام، وزينب بنت العوام، وشقيقي السائب بن العوام جاهد وقاتل مع النبيِّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الزبير: واستعمله أبو بكر رضي الله عنه، ثم استشهد يوم وقعة اليمامة.

صادقة: وعبد الرحمن بن العوام؟

الزبير: كان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله ﷺ عبدِ الرحمن، وحسن إسلامه، واستشهد يوم اليرموك.

صادق: الله أكبر.. فأنت أخو شهيدين يا سيِّدي؟

صادقة: وهو نفسُه شهيد، وأبو شهيدين يا صادق.

الزبير: وهل في أصحاب رسول الله ﷺ إلاَّ شهيد أو أخو شهيد أو والد شهيد أو ابن شهيد يا ولدي؟

صادق: نعم يا سيّدي نعم.

الزبير: وعندما اشتدّ الأذى على المسلمين، أمرنا رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فهاجرتُ مع من هاجر من المسلمين، ثم هاجرت هجرتي الثانية إلى المدينة المنوّرة.

صادقة: ونلتَ أجر الهجرتين.

الزبير: وأنا أفتخر بأنني أول من سلَّ سيفاً على المشركين في مكَّة المكرَّمة.

صادقة: قبل أن ينزل الإذن بالقتال؟

الزبير: أجل..

صادقة: كيف؟

الزبير: توهّمتُ أنَّ المشركين أخذوا رسولَ الله ﷺ، فبادرت إلى سيفي، وأقبلتُ أشقّ الناس بسيفي، والنبيُّ ﷺ بأعلى مكة، حتى لقيتُه هناك، بأبي هو وأمي، فقال لي: «ما لك يا زبير؟»

فقلت: أُخبرتُ بأنك أُخِذتَ.

قال: «فما كنتَ صانعاً؟».

قلت: أردتُ، والله، أن أستعرض أهل مكة.

فدعا لي النبيُّ ﷺ.

صادق: ما معنى قولك يا سيِّدي: أردت أن أستعرض أهل مكة؟

الزبير: أي أن أقتل من ألقاه من المشركين، دون أن أسأل عنه، حتى أجري دماءهم كالنهر، لا أترك أحداً منهم إلاَّ قتلتُه، حتى أقتلهم عن آخرهم.

صادق: الله أكبر، هذا وأنت ما تزال صبياً!.

الزبير: كنتُ ابن اثنتي عشرة سنة.

صادقة: فماذا كان ردُّ فعل الرسول القائد يا جدّي العزيز؟

الزبير: فضحك النبيُّ ﷺ، وخلع رداءه، وألبسني إياه.

صادق: الله أكبر.

الزبير: فنزل جبريل عليه السلام وقال للنبيِّ ﷺ:

«إنَّ الله يقرئك السلام، ويقول لك: اقرأ مني على الزبير السلام، وبشّره أنَّ الله أعطاه ثواب كلِّ مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله، منذ بُعثتَ إلى أن تقوم الساعة، ومن غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، لأنه أول مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله عزَّ وجلَّ».

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي دعوة رسول الله ﷺ لك ولسيفك ولبطولتك وأنت ما تزال صبياً يافعاً أصغر مني سناً، وفي مثل سنِّ أختي صادقة هذه.

صادقة: ثم ماذا عن جهادك المبرور يا سيِّدي؟

الزبير: شهدت مع رسول الله ﷺ المشاهد كلَّها، ولم أتخلَّفْ عن غزوة غزاها قطُّ!.

صادق: ماذا عن دورك في غزوة بدر الكبرى يا سيِّدي؟

الزبير: كنتُ على ميمنة جيش الرسول ﷺ، وقد وضعت على رأسي عمامة صفراء، ونزلت الملائكة وعليها عمائم صفرٌ على سيماي يوم بدر، ولله المنَّة والشكر!.

صادق: هل من ذكرى أخرى لك في بدر يا سيِّدي؟ وإن كان نزول الملائكة المقرَّبين على هيأتك لا تماثله ذكرى.

الزبير: لقيت يوم بدر، عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مدجَّج بسلاحه، لا يُرى منه إلَّا عيناه، وكان يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملتُ عليه بالعَنَزَة، فطعنته في عينه فمات.

صادق: وبعد أن مات يا سيِّدي؟

الزبير: لقد وضعتُ رجلي عليه، ثم تمطَّيت، وكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفها، فسألني إياها (أي طلبها) رسول الله ﷺ، فأعطيته إياها، فلمّا قُبض رسول الله ﷺ أخذتها، فطلبها أبو بكر، فأعطيته إياها، فلمَّا قُبض أخذتُها، ثم سألها عمر، فأعطيته إياها، فلمَّا قُبض عمر أخذتها، ثم سألها عثمان، فأعطيته إياها، فلما قُتل، وقعتْ إلى آل عليّ.

عبد الله: فطلبتُها منهم، فكانت عندي حتى قُتلت.

صادق: ما معنى العَنَزَة يا سيِّدي؟ هل هي الرمح؟ الحربة؟

الزبير: العَنَزَة يا بني، أطول من العصا، وأقصر من الرمح، وفي نهايتها حديدة كحديدة الرمح، يتوكأ عليها الشيوخ من أمثالي.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي؟

الزبير: لقد قاتلتُ في غزوة بدر قتالاً شديداً، وأُصِبْتُ في كتفي إصابة بليغة، تركت حفرة فيه، كان ابني عبد الله هذا يضع أصابعه فيها وهو صغير، فيلعب بها.

صادقة: هذه الإصابة البليغة يا جدِّي، سوف تشهد لك يوم القيامة، بأنك جاهدت في الله حق جهاده.

الزبير: وفي غزوة أحد، قاتلتُ أعداء الله وأعداء المسلمين وأعداء أنفسهم قتالاً مريراً، وعندما دارت الدائرة على المسلمين، نتيجة خطأ الرماة، وانهزم الناس، وتركوا رسول الله ﷺ في ساحة الوغى، ثبتُّ إلى جانبه مع من ثبت، وقاتلتُ دونه مع من قاتل من أبطال المسلمين، وأُصِبْتُ بجراح كثيرة في هذه المعركة، وفي معركة الخندق، جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال لي: فداك أبـي وأمّي.. فداه أبـي وأمي وأولادي ومالي وكلُّ غالٍ ونفيس.

صادقة: في سبيل الله كلُّ ما لقيتم يا أجدادنا الأبطال.

الزبير: وعندما ندبنا رسول الله ﷺ إلى غزوة حمراء الأسد، كنتُ فيمن لبَّىٰ النداء، وجراحي تنزف.

صادق: الله أكبر.. الله أكبر.

صادقة: ثم ماذا يا جدِّي المجاهد الشهيد؟

الزبير: وفي غزوة الخندق، ندب رسول الله ﷺ الناس، فانتدبتُ (أي أجبتُه واستجبت لندائه) ثم ندبهم ثانية، فانتدبتُ، فقال النبيُّ ﷺ:

«ولكلِّ نبـيٍّ حواريّ، وحواريـي الزبير».

فسألتْ صادقة عن معنى الحواري، فقلتُ لها:

ـ الحواريّ: هو الناصر والخليل الخالص من الشوائب.

والتفتُّ إلى الزبير وسألته:

ـ أليس كذلك يا سيِّدي؟

ـ بلى.. وقال الرسول ﷺ أيضاً:

«لكلِّ نبـيٍّ حواريٌّ، والزبير حواريّـي وابن عمّتي».

رآني سيِّدي الزبير أتململ، فسألني:

ـ ما لك يا بنيّ؟

قلت:

ـ أرجو أن تشرح لي معنى ندبكم فانتدبت.. أريد الحادثة حتى أفهم معنى الندب والانتداب يا سيِّدي الزبير.

فأشرق وجه الزبير وقال:

ـ في غزوة الخندق، عندما جاءنا مشركو العرب من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ورَمَوْنا عن قوسٍ واحدة، وأحاطوا بالمدينة المنوّرة، كنتُ طوعَ أوامر رسول الله ﷺ، فقد نَدَبَ رسول الله ﷺ أصحابه فقال:

ـ ألا رجلٌ يأتينا بخبر بني قريظة؟

لأنَّ اليهود قومٌ غدارون، وقد نَوَوْا الغدر بنا، فقمت وقلت:

ـ أنا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ:

ـ ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟!.

فقمت وقلت:

أنا يا رسول الله.

فقال الرسول ﷺ ثالثةً:

ـ ألا رجلٌ يأتينا بخبر بني قريظة؟

فقمتُ وقلتُ:

ـ أنا يا رسول الله.

فأذنَ لي الرسول ﷺ، وانطلقت إلى بني قريظة ثم عدتُ بأخبارهم إليه.. كنت أمرُّ بفرسي على يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد الذي عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، مخافة الغدر بنا، وكان رسول الله ﷺ يراني وأنا على فرسي وسلاحي، فيقول: «فداك أبي وأمي».

فاستأذن عبد الله بن الزبير أباه في الكلام، فأذن له، فقال:

ـ كنتُ عند الأحزاب أنا وعمرو بن سلمة مع النساء في أُطُم (أي حِصْن) حسان بن ثابت رضي الله عنه، فنظرت، فإذا الزبير على فرسه، يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت:

ـ يا أبتِ.. رأيتُك تختلف (أي تتردّد) على بني قريظة.

قال: رأيتني يا بنيّ؟

قلت: نعم.

قال: كان رسول الله ﷺ قال:

«من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم»؟

فانطلقتُ، فلمّا رجعتُ، جمع لي رسولُ الله ﷺ أبويه فقال:

«فداك أبـي وأمّي».

فقالت صادقة في تأثر عميق:

ـ يبدو أنّ يهود بني قريظة من أشرار الناس، حتى خافهم المسلمون، ولم ينتدبوا أنفسَهم لمراقبتهم والاطلاع على أحوالهم.

فقال الزبير:

ـ هذا صحيح، ولذلك كنّا نخافهم على نسائنا، ونخاف أن يغدروا بنا، فيجعلونا بين نارهم ونار الأحزاب المشركة التي تحاصر المدينة.

فقلت:

ـ بأبي وأمّي أنتم يا أصحاب رسول الله ﷺ. . بأبـي وأمي وفداك نفسي يا سيِّدي يا رسول الله.

وقالت صادقة:

ـ زدنا يا سيِّدي، فإنَّ لحديثك فعلاً عظيماً في نفوس سامعيك، أيها المجاهد المقدام.

فاعتدل الزبير رضي الله عنه في جلسته وقال:

ـ شاركت في كلِّ الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ، وكنت دائماً إلى جانبه، أفديه بنفسي، وأوثره على كلِّ شيء في حياتي، وما كنتُ أستطيع أن أتصوّر، أنّ أحداً من المشركين يَخْلُصُ إليه وأنا حيٌّ.

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

ـ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«رأيتُ رسول الله ﷺ وقد نام، فجلس الزبير يذبُّ عن وجهه حتى استيقظ، فقال له:

«يا أبا عبد الله لم تزل؟».

فقال الزبير: لم أزل، أنتَ بأبي وأمي.

فقال رسول الله ﷺ:

«هذا جبريل يقرئك السلام ويقول: أنا معك يوم القيامة، حتى أذبّ عن وجهك شرر جهنم».

وتابع عبد الله بن الزبير يقول:

ــ وفي غزوة الخندق، ضرب الزبيرُ عثمانَ بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مِغْفَرِه، فقطعه إلى القَرَبُوس (وهو مقدَّم السَّرْج ومؤخره) فقالوا له: ما أجوَدَ سيفَك!، ما أقطعَ سيفَك!. فغضب الزبير، لأن الفعل لزنده المفتول، وليس للسيف.

وحانت مني التفاتة إلى يد الزبير، فلَمَحْتُ العَضَلَ المفتول وهو في هذه السنّ، فلم أملك نفسي من إبداء إعجابي بتلك العضلات التي احتوتها يداه القويتان، وهمستُ:

ــ معك حقٌّ في غضبك يا أيُّها الأسدُ الهصور.

وقالت أختي صادقة:

ــ قال ابنك عروة بن الزبير يا جدّي العزيز:

قال لي عبد الملك بن مروان:

يا عروة! هل تعرف سيف الزبير؟

قلت: نعم.

قال: فما فيه؟

قلتُ: فَلَّةٌ فلَّها يوم بدر.

فاستلَّ عبدُ الملك السيفَ من قرابه، فرأى الفلَّةَ فيه، فقال:

بهنَّ فلولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ.

ثم أغمده وردَّه عليَّ، فأقمناه بيننا بثلاثة آلاف، فأخذه بعضنا، ولَوَدِدْتُ أني كنتُ أخذته.

فسألتُ صادقة:

ـ كأنكِ ذكرت شطراً من بيتٍ من شِعْر؟

قالت:

ـ البيت كاملاً هو:

ولا عيب فيهم، غير أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ

فقلت:

ـ هذا بيت رائع، فمن قائله؟

أجابت صادقة:

ـ هذا البيت من قصيدة رائعة للنابغة الذبياني.

ـ هل تذكرين مطلع القصيدة؟

ـ طبعاً أذكره، لأنه من أجمل المطالع الشعرية.. قال النابغة:

كِلْيني لِهَمٍّ، يا أميمةُ، ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ

فهزّ الزبير رأسه طرباً لسماع هذا الشعر البديع، فسألته:

ـ هل تحبّ الشعر يا سيِّدي؟

فأجاب:

ـ وهل هناك عربيٌّ لا يحبُّ الشعر ويطرب له؟

ثم قال:

ـ اسمعوا هذه الحادثة، لتعرفوا رأيي بالشعر..

مررت مرةً بمجلس من أصحاب رسول الله ﷺ، وحسان بن ثابت ـ شاعر الرسول ـ ينشدهم من شعره، وهم غيرُ نِشاطٍ لما يسمعون منه، فجلست معهم، ثم قلت لهم:

ما لي أراكم غير أَذِنين (أي لا تُلْقُون بالاً) لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيعة (يعني حسانَ)؟!. فَلقد كان يعرضه على رسول الله ﷺ، فيُحسن استماعَه، ويُجْزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه.

فقال عبد الله بن الزبير:

ـ فقال حسّانُ يمدح الزبير:

أقام على عهد النبيِّ وهَدْيهِ ... حواريُّه، والقولُ بالفعل يُعْدَلُ
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالي وليَّ الحقِّ، والحقُّ أعدلُ
هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفتْ عن ساقها الحرب حشَّها ... بأبيضَ سبّاقٍ إلى الموت يُرْقِلُ
وإنَّ امرءاً كانت صفيَّةُ أمَّه ... ومن أَسَدٍ في بيتها ـ لَمؤَثَّلُ
له من رسول الله قربىٰ قريبةٌ ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مُؤَثَّلُ
فكم كربةٍ ذبَّ الزبيرُ بسيفه ... عن المصطفى، والله يعطي فيُجْزِلُ
ثناؤك خيرٌ من فَعال معاشرٍ ... وفعلُك يا ابن الهاشمية أفضلُ

كان الزبير رضي الله عنه واضح الطرب والسعادة، وهو يسمع إنشاد ابنه عبد الله، لشعر شاعر النبيِّ، حسان بن ثابت رضي الله عنه، فقال عبد الله:

ــ ولما استشهدتَ، يا والدي، رثاك جرير بن الخَطَفيّ بقصيدة جيدة، كان منها هذان البيتان:

إنَّ الــرَّزِيَّــة مــن تضمَّــنَ قبــرَه ... وادي السباع، لكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ

لمّـا أتـىٰ خبـرُ الـزبيـر تـواضعـت ... سُوَرُ المدينةِ، والجبال الخُشّعُ

فانطلق لسان الزبير يدندن بالبيت الثاني في تطريب:

لمّـا أتـىٰ خبـرُ الـزبيـر تـواضعـت ... سُوَرُ المدينةِ، والجبال الخُشّعُ

فقالت أختي صادقة:

ــ علـى ذكـر الشهـادة والاستشهـاد، هـلاّ رويـتَ لنـا يـا سيِّـدي حديثاً شريفاً في فضل الشهادة في سبيل الله تعالى!.

ــ احفظوا هذا الحديث إذا شئتم..

قال رسول الله ﷺ:

«للشهيد عند الله ستُّ خصال:

يُغْفَرُ له في أول دفقة.

ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر.

ويأمن من الفزع الأكبر.

ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.

ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه».

ما رأيكم؟

هنيئاً للشهداء.

ـ اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك.

وقال عبد الله بن الزبير:

ـ يكفي أن تقرؤوا قول الله عزَّ وجلَّ في مقام الشهيد عند ربِّه، حتى يتمنَّى كلُّ مسلم أن يكون شهيداً. . اسمعوا هذه الآيات الرائعات:

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربِّهم يُرزَقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفِهم، ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ، وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجرٌ عظيم﴾.

فقال الزبير رضي الله عنه:

ـ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح: هم أولئك الذين لبَّوْا نداء الرسول القائد للحاق بالمشركين الذين عادوا من غزوة أُحُد. فقد انتدبنا رسول الله ﷺ إلى (حمراء الأسد) فلبَّيْنا النداء مسرعين، وجراحُنا تقطر دماً، فأكرمنا الله بهذه الآية الكريمة:

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجرٌ عظيم﴾.

ـ صدق الله العظيم.

ـ صدق الله العظيم.

وقال الزبير:

أرجو أن أكون منهم.

فقالت صادقة:

ـ بل أنت منهم بإذن الله يا جدِّي العظيم، فقد روى ابنك عروة بن الزبير، عن خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت له:

«أبواك والله من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح».

فقلت:

ـ معنى هذا، أنَّ زوجتك أسماء يا سيِّدي، كانتِ ممن شارك في غزوة حمراء الأسد؟!.

ـ لا.. زوجتي أمُّ عبد الله لم تشارك في هذه الغزوة، إنما شاركت في معركة اليرموك.

فهتفتُ في إعجاب:

ـ الله أكبر.. إذن أنت وزوجتك شاركتما في معركة اليرموك!.

فقالت صادقة مقاطعة:

ـ عفواً يا أخي.. أريد أن يشرح لنا جدِّي الزبير، معنى قول أمِّ المؤمنين عائشة، لعروة بن الزبير:

«أبواك، والله، من الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح».

قال الزبير:

ـ الأمر بسيط يا بنتي.. أبواك.. تعنى أباه الزبير، وجدّه أبا بكر الصِّدِّيق والد أمّه أسماء بنت أبي بكر..

فتساءلت صادقة:

ـ أبواك.. تعني أباه الزبير، وجدّه الصدّيق إذن؟

فقلت في فرح:

ـ نعم يا صادقة.. هذه أخذناها في درس النحو، وتُسمَّى التغليب.. تغليب الأب على الجدّ، والجدّ والدٌ وأب.. وأبواك: الأب والأمُّ أيضاً، بتغليب الأب على الأمّ.. والقمران، تعني الشمس والقمر، بتغليب القمر المذكر، على الشمس المؤنث.. والعمران: تعني أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

فقال الزبير في سرور:

ـ بارك الله فيك يا بني.. فقد كنتُ وأبا بكر ممن استجاب لنداء الرسول ﷺ، وسارعنا إلى (حمراء الأسد) فلمّا رآنا مشركو مكة نلحق بهم، ولَّوُا الأدبار عائدين إلى مكة، ونحن عدنا إلى المدينة،

دون أن نسمح لهم بمهاجمتها وتلويثها برجسهم وشركهم وطغيانهم، والحمد لله.

فقلت وأنا أنظر إلى صادقة:

ـ هل نعود إلى اليرموك؟

فقالت صادقة:

ـ بعد هذا السؤال يا أخي.

ثم التفتت إلى سيِّدي الزبير وسألت:

ـ هل رويتَ أحاديث كثيرة عن النبيّ الكريم يا سيِّدي الزبير؟

فأجابَها عبد الله بن الزبير بقوله:

ـ قلت للزبير: ما يمنعك أن تحدّث عن رسول الله ﷺ، كما يحدث عنه أصحابه؟ فقال:

أنا واللَّهِ لم أفارقه منذ أسلمتُ، ولكني سمعتُه يقول:

«مَنْ كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فلْيتبوّأ مقعدَه من النار».

فلا أحبُّ أن أحدّث عنه.

فقالت صادقة:

ـ تستطيع الآن أن تعود إلى اليرموك يا أخي إن أحببتَ.

فقال الزبير رضي الله عنه:

ـ نعود.. فقد كنت أنا وزوجتي أسماء ممن خاضوا معركة اليرموك.. كنت أقاتل، وكانت أسماء تسقي الجنود، وتُعنىٰ بالجرحى، وتخدم الجيش، وتحرّض على القتال، كسائر المجاهدات المسلمات اللواتي شاركننا في معركة اليرموك وسواها من المعارك.

فقالت صادقة:

ـ في كل يوم نكتشف جديداً من الأدوار المشرّفة للمرأة العربية المسلمة.

فقال الزبير:

ـ النساء شقائق الرجال يا بنتي، وما قصّرت نساؤنا عن أداء الواجب أبداً.. اقرؤوا تاريخكم، لتروا جدّاتكم قد سطّرن أعمالاً خالدة، أين منها أعمال نساء العالمين!.

ـ ثم ماذا يا سيِّدي؟

قال الزبير رضي الله عنه:

ـ قال لي أصحاب النبـيّ ﷺ، يوم اليرموك:

ألا تشدُّ فنشدَّ معك؟!.

فحملتُ على الروم حملة صاعقة، فضربوني ضربتين على عاتقي، بينهما ضربة يوم بدر، فكانت حفرٌ يلعب بها ولداي: عبد الله وعروة، يدخلان أصابعهما الصغيرة فيها.

فقالت صادقة:

ـ أحفظ مما قرأت في كتب التاريخ عنكم يا جدّي البطل، عن حفص بن خالد قال: حدّثني شيخ من التابعين، قَدِمَ علينا من الموصل، قال:

صحبتُ الزبير بن العوّام في بعض أسفاره، فأصابته جنابة، وكنّا بأرض قَفْر، فقال لي: استرني، فسترتُه، فحانت مني التفاتة إلى

جسده، فرأيتُه مجدَّعاً بالسيوف.. والله لقد رأيت في صدره أمثال العيون من الطعن والرمي.

ــ شكـر الله لـك يـا ابنتي علـى هـذه المعلـومـات التـي كـدت أنساها.

فتابعت صادقة في حماسة:

ــ ويحدّثنا التاريخ عن حضورك إلى الجابية مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما يحدّثنا عن رأي سيِّدنا عمر فيك، وأنه كان يراك أهلاً لتولي إمارة المؤمنين، وأنّ أمير المؤمنين عثمان كان يراك أصلح من يقوم بأمر الخلافة من بعده، وقال لمن طلبوا منه أن يستخلف على المسلمين أميراً منهم:

أمَا والله إنكم لتعلمون أنّ الزبير خيركم.

أمَا والله إنكم لتعلمون أنّ الزبير خيركم.

أمَا والله إنكم لتعلمون أنّ الزبير خيركم.

وقلتُ أنا العبد الفقير إلى الله تعالى:

ــ ثم ماذا عن قتالك في سبيل الله يا سيِّدي العزيز؟

قال الزبير رضي الله عنه:

ــ أعطاني رسول الله ﷺ ساعدين من ديباج، فقاتلت فيهما.

فقلت:

ــ الحمد لله الذي جعلك تنعم بشرف الجهاد تحت لواء قائد المجاهدين محمد ﷺ، وجعلك تنعم بشرف الهجرتين، وبشرف

السبق إلى الإِسلام، والجهاد لإِعلاء كلمة الله تعالى.. والآن.. يطيب لنا أن نسمع شيئاً من أخبار جودك وكرمك يا سيِّدي.

فتنحنح عبد الله بن الزبير وقال:

ـ دعوا هذه لي، وأنا أحدّثكم عنها في اقتضاب، حتى لا نؤذي أبي بالحديث عنه، وإطراء كرمه..

تعلمون أن أبي كان تاجراً محظوظاً موفقاً في تجارته، كأخيه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولذلك، نمت تجارته، وكثرت أمواله، ولكنه لم يكن من عبيد المال، بل كان المال عبداً له، ينفقه في وجوه الخير، وفي سبيل الله على المجاهدين والفقراء والمساكين والمقطوعين والأرامل والأيتام..

كان أبي وعليٌّ بن أبي طالب أكرم الناس على عهد رسول الله ﷺ، وبعد وفاته عليه السلام، بعث الزبير أبي إلى عائشة أمِّ المؤمنين بغِرَارتين (أي كيسين من الخيش) فيهما مئة وثمانون ألف درهم. كما أن رسول الله ﷺ لمّا هاجر، لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء.

ونظر إلينا عبد الله وقال:

ـ أظن في هذا كفاية.

فقالت صادقة:

ـ هل نزل قرآن بشأن من شؤون الزبير البطل يا عمّي؟

فقال عبد الله بن الزبير:

ــ خاصم رجلٌ الزبيرَ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الزبير للأنصاري: «سرِّح الماء يمرّ».

فأبى الأنصاري إلاَّ أن يحبس الماء عن أرض الزبير، فاحتكموا إلى النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ للزبير:

«اسقِ يا زبير، ثم أرسلْ إلى جارك».

فغضب الأنصاريُّ فقال:

ــ يا رسول الله! أن كان ابنَ عمَّتك؟!.

فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال:

«يا زبير، اسقِ ثم احبسِ الماء حتى يبلغ الجُدُر» (أي الجدران).

فقال الزبير رضي الله عنه:

ــ والله إني لأحسب هذه نزلت في ذلك:

﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ ويسلِّموا تسليماً﴾.

وقال عبد الله بن الزبير:

ــ عندما أخرج المشركون خبيباً ليقتلوه، قال لهم:

«دعوني حتى أصلّي ركعتين».

فتركوه حتى صلّى ركعتين، ثم قال:

«لولا أن يقولوا: جزع، لزدتُ، وأنشأ يقول:

ولســت أبــالــي حيــن أُقتَــلُ مسلمــاً

على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي!».

فصلبوه حيّاً، فقال:

«اللهمّ إنك تعلم أنه ليس حواليّ أحدٌ يبلِّغ رسولك مقامي، فأبلغه سلامي».

ثم رموه بسهم، وطعنوه برمح، فبلغ النبــيَّ ﷺ خبرُه.

فقال:

«أيّكم يحتمل خبيباً من خشبته وله الجنة؟».

قال الزبير:

ـ فقلت: أنا وصاحبـي المقداد.

فخـرجنـا نسيـر الليـل والنهـار حتـى وافينـا المكـان، فـإذا حـول الخشبة أربعون رجلاً نياماً، وإذا هو رطب لم يتغير منه شيء بعد أربعين يوماً، فحملتُه على فرسي وسرت، فلحقنا سبعون منهم، فقذفتُ خبيباً، فابتلعته الأرض. فقلت للمشركين:

«ما جرّأكم علينا يا معشر قريش؟!».

ثم رفعتُ العمامة عن رأسي وقلت:

«أنا الزبير بن العوام، وأميّ صفية بنت عبد المطلب، وصاحبـي المقداد بن الأسود، أسدان رابضان، إن شئتم ناضلتم، وإن شئتم نازلتم، وإن شئتم انصرفتم».

فانصرفوا..

فقَدِمْنا على رسول الله ﷺ وعنده جبريل، فقال:

«يا محمد! . إنّ الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك».

ونزل قوله تعالى:

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾.

وقال عبد الله بن الزبير:

ــ وسبق في أول الجلسة، أنَّ الآية الكريمة:

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح...﴾ نزلت في سبعين صحابياً، منهم أبو بكر والزبير رضي الله عنهما.

وقال عبد الله:

ــ قال رسول الله ﷺ:

«من سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلْيَنظُرْ إلى الزبير».

فهل ترغبان في أن أذكر لكما خبر استشهاد والدي الزبير، وكيف كان؟

فأطرقنا أنا وصادقة إلى الأرض حياءً وحزناً وألماً، فقال عبد الله:

ــ لمّا دنا عليٌّ بن أبي طالب وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج عليٌّ على بغلة رسول الله ﷺ فنادى:

ــ أدعو الزبير.

فأقبل الزبير نحوه، حتى اختلفت أعناق دوابّهما، فقال عليٌّ كرَّم الله وجهه:

«يا زبير، نشدتُك بالله، أتذكر يوم مرَّ بك رسولُ الله ﷺ في مكان كذا وكذا، وقال:

«يا زبير!. أتحبُّ عليًّا؟»».

فقال الزبير:

ألا أحبّ ابن خالي، وعلى ديني؟

فقال النبيُّ ﷺ:

«يا عليّ!. أتحبُّه؟

قال عليّ:

يا رسول الله!. ألا أحبُّ ابن عمَّتي وعلى ديني؟

فقال رسول الله ﷺ:

«يا زبير!. لتقاتلنَّه، وإنك له ظالم».

قال عبد الله بن الزبير:

ــ فقال الزبير:

بلى.. والله لقد أُنْسِيْتُه منذ سمعته من رسول الله ﷺ، ثم ذكرتُه الآن.. والله لا أقاتلك!.

فرجع الزبير على دابَّته يشقّ الصفوف، فعرضتُ له وقلت:

ــ مالك؟

قال: قد ذكَّرني عليٌّ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لتقاتلنَّه وأنت له ظالم» ولن أقاتله.

ثم رجع الزبير منصرفاً إلى المدينة، فرآه عبد الله بن جُرْموز فقال:

ـ كيف تحرّش بين الناس ثم تتركهم؟ والله لا نتركك.

فلما لحق ابن جرموز بالزبير، ورأى الزبير أنه يريده، أقبل عليه الزبير، فقال له ابن جرموز:

ـ أذكر الله.

فكفَّ عنه الزبير، حتى فعل ذلك مراراً، فقال الزبير:

ـ قاتله الله، يذكّر بالله وينساه.

ثم غافله ابن جرموز فقتله، وكان ذلك يوم الخميس لعشر خَلَوْنَ من جمادى الآخرة، سنة ستٍّ وثلاثين الهجرية، يوم وقعة الجمل، وكانت سنُّه يومئذٍ، سبعاً وستين سنة.

وسكت عبد الله بن الزبير لحظات، استردّ فيها رباطة جأشه، ثم قال:

ـ وعاد ابن جرموز إلى عليٍّ يبشره بقتل الزبير، فقال له علي: «بشِّرْ قاتل ابن صفيّة بالنار».

ثمّ طرده من عنده.

وسكت عبد الله قليلاً ثم قال، ونحن ما زلنا مُطرقين أرضاً، والحزن قد أخذ منا كلَّ مأخذ:

ـ وكان الزبير يوم الجمل، يوصيني بدَيْنه ويقول: «إن عجزتَ عن شيء منه، فاستعنْ عليه بمولاي».

فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت له:

ـ يا أبت!. من مولاك؟

قال:

ـ الله تعالى.

فوالله ما وقعتُ في كربة من دَيْنه إلاَّ قلت:

«يا مولى الزبير، اقضِ عنه».

فيقضيه.

كنت أقلَّ انفعالاً من أختي، فسألتُ عبد الله بن الزبير:

ـ ألم يكن سيِّدي الزبير غنياً؟

ـ بلى!.

ـ فمن أين ركبته تلك الديون؟

فأجاب عبد الله:

ـ إنما كان دينه الذي عليه، أنَّ الرجل كان يأتيه بالمال يستودعه إياه، فيقول له الزبير:

ـ لا.. ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة (يعني أخشى أن يضيع).

قال عبد الله:

ـ فحسبت ما عليه من الدين، فوجدتُه ألفي ألف، ومئة ألف.

فصاحت صادقة:

ـ الله أكبر. مليونان ومئة ألف؟!.

وقال عبد الله:

ـ لقد قُتل الزبير ولم يدعْ ديناراً ولا درهماً إلَّا أرضينِ بعتُهما وقضيتُ دينه. فقال بنو الزبير:

ـ ميراثنا.

فقلت:

ـ والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين:

«ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا، فلنقضِه».

فجعلت كلَّ سنة أنادي، فلما انقضت أربع سنين، قسمت بينهم.

قال الزبير في تأثر واضح:

ـ انصرفتُ بعد حديثي مع عليّ بن أبي طالب وأنا أنشد:

ولقد علمتُ لو أنَّ علميَ نافعي أنَّ الحياة من الممات قريب

فلم أنشب أن قتلني ابن جُرموز.

وعندما لقيني ابني عبد الله، بعد منصَرفي من عند عليٍّ، قال لي:

ـ جبناً، جبناً!!.

فقلت له:

ـ قد علم الناس أنِّي لست بجبان، ولكنْ ذكَّرني عليٌّ شيئاً سمعتُه من رسول الله ﷺ، فحلفت ألّا أقاتله، ثم أنشدتُ:

تركُ الأمور التي أخشى عواقبها

في الله، أحسن في الدنيا وفي الدين!.

وقال عبد الله:

ـ بعد دفن أبـي بوادي السباع، قرب البصرة، جلس عليٌّ يبكي على الزبير هو وأصحابه.

فسألتْ أختي صادقة:

ـ كم يبعد وادي السباع عن البصرة يا عمّي عبد الله؟

أجاب عبد الله بن الزبير:

ـ مسافة سبعة فراسخ.

فسألتني صادقة:

ـ كم حسبنا الفرسخ يا أخي؟

وأجبتها:

ـ الفرسخ يساوي خمسة كيلومترات، يعني وادي السباع على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً من البصرة.

وسألت سيِّدي عبد الله بن الزبير عن القاتل الملعون ابن جُرموز الذي بشّره النبـيُّ الكريم، وأمير المؤمنين عليٌّ بالنار، فقال:

ـ أكلَ المُعَثَّرُ يديه ندماً على قتله الزبير، واستغفر ربَّه، ثم جاء إلى أخي مصعب بن الزبير حين كان والياً على العراق من قِبَلي، وقال له:

ـ أَقِدْني بالزبير (أي اقتلني به).

فكتب إليَّ مصعب في ذلك مستشيراً فكتبتُ إليه:

ـ أنا أقتل ابن جُرموز بالزبير؟ ولا بِشَسْع نعله.

فهتفت:

ـ بارك الله فيك يا سيِّدي يا عبد الله بن الزبير، وإلاَّ.. فمن يكون ابن جرموز وكلُّ الجراميز إذا قيسوا بسيِّدي البطل المغوار، الزبير بن العوّام؟!.

وسألت أختي صادقة البطل الزبير:

ـ كم ولداً كان لك يا جدّي العزيز؟

فأجاب الزبير:

ـ كان لي عشرون ولداً، أحد عشر ذكراً، وتسع بنات.

ـ ما شاء الله.. وكلُّهم من السيدة أسماء بنت أبي بكر يا سيِّدي؟

ـ بل كانت لي أربع نسوة.. من النسوة الأربع.

وقال عبد الله بن الزبير:

ـ وقد رثته زوجته عاتكة بنت زيد بهذه الأبيات:

غَدَر ابنُ جُرْموزٍ بفارس بُهْمةٍ ... يوم اللقاء، وكان غير مُعَرَّدِ
يا عبدُ لو نبَّهْتَه لوجدتَه ... لا طائشاً رعشَ البَنَانِ ولا اليدِ
ثكلتْكَ أمُّك إنْ ظفرتَ بمثله ... فيما مضى، مما تروح وتغتدي
كم غمرةٍ قد خاضَها لم يَثْنِه ... عنها طِرادُك يا ابن فَقْعِ الفدفدِ
واللَّهِ ربِّكَ إنْ قتلْتَ لَمُسْلِماً ... حَلَّتْ عليك عقوبة المتعمِّدِ

مسحت صادقة دمعها، ثم سألت بصوت متهدِّج:

ـ ما معنى البُهْمة يا جدّي الشهيد؟

ـ البُهمة: الشجاع.

وقال عبد الله بن الزبير:

ــ البُهْمة: هو الفارس الذي لا يُدْرىٰ من أين يُؤْتىٰ له من شدّة بأسه، وكذلك كان أبــي.

وسألتُ أنا:

ــ ما معنى: غير معرَّد؟

ــ غير هارب.. المعرَّد: الذي يفرّ من المعركة.

ــ وفقع الفدفد؟

ــ نوع أبيض من رديء الكمأة. والفدفد: الأرض المستوية. وفقع الفدفد يُضرب مثلاً للذليل الخانع.

ــ وعقوبة المتعمِّد؟

ــ عقوبة القاتل قتلاً عمداً، إشارة إلى قول الله تعالى:

﴿ومَنْ يقتُلْ مؤمناً متعمِّداً فجزاؤه جهنمُ خالداً فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾.

• • •

المصادر والمراجع

١ ــ السيرة النبوية، لابن هشام.

٢ ــ السيرة النبوية، لابن كثير.

٣ ــ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.

٤ ــ سير أعلام النبلاء، للذهبـي.

٥ ــ الرياض النضرة، للمحبّ الطبري.

٦ ــ رجال حول الرسول، خالد محمد خالد.

٧ ــ رجال أنزل الله فيهم قرآناً، عبد الرحمن عميرة.

٨ ــ صفة الصفوة، لابن الجوزي.

٩ ــ حلية الأولياء، لأبـي نعيم.

● ● ●